ألحان الغروب ..

من قديم الزمن كان تقديس الغروب أدبا مأثورًا عن المصريين الأولين ، ومن بواكير عصر التاريخ كان كبير آلهتهم « أوزيريس » موكلاً بالشمس الغاربة والشموس الغاربين ، ومن هذه الشموس نيران آدمية كانت تنير ، وطلعات كانت تطلع ، وقلوب كانت تشع فى حرارتها وميض الحياة .

لقد كان جميلاً بأولئك الأولين أن يستقبلوا الشمس الغاربة ، فما فى استقبال الشموس الطالعة من نخوة نادرة فى طبائع الأحياء ، وكان جميلاً منهم أن يزدان شاطئهم الغربى بأعظم الهياكل وأخلد الآثار ، فحسب المطلع الشرقى من زينة أنه قبلة الناظرين وأنه غنى عن استقبال الذاكرين ! .

يقول كنفشيوس حكيم الصين : « معاملتنا الموتى كأنهم موتى ولا شىء غير ذلك فقدان للعطف والوفاء ، ومعاملتنا الموتى كأنهم أحياء ولا شىء غير ذلك فقدان للعقل والحس ، فلا هذا ولا ذاك ، ولكنه قوام بين الأمرين » .

أبناء الشرق جميعًا على ما ظهر لنا عارفون بحق الغروب ؛ عارفون بحق الغاربين ، فهم لا ينسونهم كأنهم ميتون ولا شىء ، وهم لا ينافسونهم كأنهم أحياء ولا شىء ، ولكنهم يذكرونهم ويعفونهم من صراع المنافسة بين الأحياء وعلى هذه السنة درجت حضارات الشرق البعيد ، وعليها فى هذه الرقعة من الأرض درجت حضارة وادى النيل .

نعم وعلى هذه السنة جرى زميلنا « الطناحى » فى كتابه ألحان الغروب ، فهو من سطره الأول إلى سطره الأخير وفاء للشموس الغاربة وذكرى للأيام الذاهبة وهو فى لبابه شريعة مصرية يباركها الأولون والآخرون ولو لم يكن فيه

إلا أنه جزاء كريم لمن كف الموت أيديهم عن الجزاء لكان جديرًا من الأحياء بالجزاء الحسن والثناء الجميل .

فى هذه الصفحات صفحات أخيرة من كل سيرة ، وفى هذه السير شىء عن الأمراء من أمثال إسماعيل وتوفيق وحسين ، وشىء عن الأئمة والزعماء من أمثال عرابى ومحمد عبده وسعد زغلول ، وشىء عن الأدباء من أمثال صبرى والبكرى وحافظ إبراهيم ، وشىء عن الكتاب من أمثال زيدان والمنفلوطى وبركات ، وشىء عن ربات الخدر والقلم من أمثال مى والباحثة ، وشىء من العبرة البالغة فى كل حياة نابغة ، وكلهم كما قال عنهم « شموس مصر سطعوا فى سمائها زمانًا وكان منهم لأبنائها - بل لأبناء الشرق كله - النور والدفء ، والهداية والرعاية ، والقوة والحياة » .

وقد بدأ الكتاب بلحن من الطبقة العالية متسائلًا : لماذا نخاف الموت ؟ وكان من الحق أن يسأل هذا السؤال إذا كان الموت كله طريقًا للخلود وبابًا يطرقه أولئك الخالدون .

لماذا نخاف الموت ؟ سؤال قد أجاب عنه أناس ميتون ، وإن لم يكونوا ميتين يوم تركوا لنا جوابهم المحفوظ فى سجل الخالدين .

يقول الشاعر سفوكليس : « ليس الموت أسوأ شرور الحياة ، فشر من الموت أن نتمناه ولا نلقاه » .

ويقول الخطيب شيشرون : « لا أريد أن أموت ولكنى لا أبالى أن أموت » .

ويقول الفيلسوف طاليس : « لا فرق بين الحياة والموت » فإذا قيل له : ولماذا تحيا ؟ قال : لأنه لا فرق بين الموت والحياة !

وغير هؤلاء قالوا غير هذا المقال ، فشاعرنا أبو الطيب يقول :

وإذا الشيخ قال أف فما مل حيـاة وإنما الضعف مـلا

ولكنه كذلك يقول :

ألف هذا الهواء أوقع فى الأنفس أن الحمـام مـر المـذاق
والأسى قبل فرقة الروح عجز والأسى لا يكون بعد الفـراق

والضرير البصير ، شاعر اليونان الكبير ، يقول على لسان بطل من أبطاله : « لخير لى أن أعيش عبدًا لأفقر الفقراء من أن أموت ملكًا على أشباح الظلماء » .

ولكنه كذلك عاش ليصوغ آيات الثناء لمن آثروا ميتة الأبطال على عيشة الجبناء ..!!

أما الذى نؤمن به نحن فهو أن الخوف من الموت غريزة حية لا معابة فيها ، وإنما العيب أن يتغلب هذا الخوف علينا ولا نتغلب عليه كلما وجب أن نغلبه فى موقف الصراع بين الغريزة والضمير ، فإن الخضوع له فى هذه الحالة ضعف ، والضعف شر من الموت .

والأستاذ الطناحى يروى عن الفيلسوف الفرنسى شارل رينوفيه تعليله لخوف الموت حيث يقول : « إن الإنسان عندما يكون شيخًا وقد اعتاد الحياة يصعب عليه كثيرًا أن يموت ، وأن الشبان كما يرى أكثر خضوعًا للموت من الشيوخ » كأنه يريد أن يقول إن الشبان لم تطل بهم عادة الحياة فلم يألفوها كما ألفها الشيوخ ، ولو طالت بهم لخافوا فراقها وخذلتهم الشجاعة عند شعورهم بالخطر عليها .

أما الواقع كما نراه فهو أن الشيوخ يخافون الموت لأنهم ضعاف ، والخوف أقرب إلى طبيعة الضعفاء ، ولا فرق فى هذه الخلة بين الشيخ والفتى إذا تشابها فى الضعف أو تشابها فى قلة الثقة بالحياة .

فالمحنة كلها إنما هى محنة الضعف أمام الموت ، ولا فرق بين الضعف أمام الموت والضعف أمام الحياة ، فإن الحى الضعيف يهاب فى حياته أمورًا كثيرة قبل أن يهاب الموت الذى يسلبه تلك الحياة .

وأسلوب القرآن الحكيم خير الأساليب فى التعريف بموضع المذمة من حب الحياة أو كراهة الموت ، فلا ملامة فى أن يحرص الإنسان على الحياة فلا يلقى بيديه إلى التهلكة ، وإنما الملامة أن يكون « أحرص الناس على حياة » .. أى حياة وكل حياة ، وبغير تفرقة بين أرفع حياة وأسفل حياة .

إنما الملامة أن نقبل أى حياة ونحرص على كل حياة ، ولكن لا ملامة على

الإطلاق فى حب الحياة كما نريدها وبالشروط التى نرضاها ، فتلك هى القوة أمام الحياة وأمام الموت على السواء .

ولست أحسب أن أحدًا يهون على النفوس حب وجوده إلا وهو مغالط فى كلامه ، إذا كان الوجود قد انقاد له بما نرتضيه نحن من شروطه ومحاسنه . ولست أذكر أن قلمًا جرى فى تهوين خوف الموت بأبلغ من كلام الأديب الكبير وليام هازليت حيث يقول : « لعل العلاج الأمثل لخوف الموت أن نذكر أن الحياة لها بداية كما لها نهاية ، وأنه كان بالأمس زمن لم نكن فيه فلماذا يشغلنا إذن أن يجىء غدًا زمن لا نكون فيه » ؟

إلى أن يقول : « ما أجد فى نفسى رغبة أننى كنت حيًّا على عهد الملكة ن قبل مائة سنة ، فما بالى أهتم بأن أكون حيًّا بعد مائة سنة فى عهد من لا أدرى وما اسمه من الملوك أو الملكات ؟ » .

فهذا كلام بليغ فى الأسلوب الخطابى الذى يقوم على التزويق وعلى القياس مع الفارق البعيد أو القريب ، فإن الفرق ظاهر بين ماض لم أفقده لأننى لم أكن موجودًا فيه ، وبين مستقبل سأفقده لأننى وجدت فى الحاضر ثم انقطع بى الوجود قبل الوصول إليه ، فليس فى هذه البلاغة إقناع بل فيها تلطيف للواقع ومحاولة للعزاء حيث نحتاج إلى العزاء .

غير أننا لا نحتاج إلى المغالطة ولا البلاغة الخطابية حين نفرق بين الحياة وبين كل حياة وأى حياة ، فمن يقبل الحياة بشروطه لا حاجة به إلى مقنع يقنعه بأن الموت خير من الحياة التى تنعدم فيها هذه الشروط ، ومن يقبل كل حياة ويحرص على أى حياة لن تجديه بلاغة ولن تجوز عليه مغالطة فى خوفه من الموت كيفما كان وفى تشبثه بالحياة كيفما تكون .

ولعلى أنصف الحياة نفسها إذا قلت إن خوف الموت ذو فضل عظيم على الأحياء وإنه كما قال أبو العلاء :

وخوف الردى آوى إلى الكهف أهله ... وعلم نوحًا وابنه عمل السفن
وما استعذبته روح موسى وآدم ... وقد وعدا من بعده جنتى عدن

فلا ضير أن نتقى الموت فنحيا كما ينبغى أن نحيا ، وإنما الضير أن تغلبنا هذه التقية فنحيا كما لا تنبغى حياة .

ثم أعود إلى الغروب وأهله فأرجو منهم المعذرة ، وأرجو مع معذرتهم أن أعود إليهم ببعض ما أعلم عن مغاربهم ومشارقهم ، فأما فى هذا المقال فقد راعتنا الفاتحة من هذه الموسيقى الخالدة فمضينا معها ، وما من كثير على الماضى الباقى بعض المضى وبعض البقاء .

obeikandi.com

مأساة نابغ ونابغة ...

اشتمل كتاب ألحان الغروب لمؤلفه المؤرخ العصرى الأستاذ طاهر الطناحى على أكثر من عشرين سيرة من سير العظماء النابهين الذين انقضت حياتهم فى الجيل الحاضر ، ذكرنا أسماء بعضهم فى مقال الأسبوع الماضى ووعدنا بالعودة إليها لنعقب عليها ببعض ما شهدناه وعلمناه ، وأكثر أصحاب السير فى الكتاب ممن عرفناهم ولقيناهم ووقفنا من تاريخهم على كثير من المعلوم والمجهول .

اشتمل الكتاب على أكثر من عشرين سيرة ، ليس منها ما هو أشد اختلافاً فى النشأة والتربية والمذهب والثقافة والخصال الشخصية من السيد توفيق البكرى والآنسة مى زيادة رحمها الله ، ولكنهما مع هذا هما الوحيدان اللذان انتهت حياتهما بمأساة نفسية أو عقلية واحدة ، ووقفت فيما أعتقد على السبب المباشر لهذه المأساة .

أصيب كلاهما فى أخريات أيامه بوسواس الاضطهاد ، ونزل كلاهما زمناً بمستشفى العصفورية فى لبنان ، وبدأت المأساة عندهما بصدمة مزعجة سبقتها صدمات ، ثم استحكمت جميعها حتى استعصى فيها العلاج .

ذكر أيام اشتغالى بتحرير صحيفة الدستور حوالى سنة ١٩٠٨ أن السيد توفيق البكرى ذهب إلى ميدان القلعة فى الاحتفال بالمحمل ولم يخرج أتباعه من أصحاب الطرق الصوفية للاشتراك فى ذلك الاحتفال ، وكانت بينه وبين الخديوى عباس الثانى جفوة شديدة فى ذلك الحين ، فاعتقد الخديوى أن السيد تعمد منع الطرق الصوفية فى ذلك اليوم إخلالاً بتقاليد الموكب التى جرى العمل عليها مئات السنين ، وسأله فى غضب : لم لا أرى هنا مواكب الطرق الصوفية ؟ فقال السيد ما معناه أنه منعها لأنه قد حان الأوان للتخلص من هذه

البدع .. فانتهره الخديوى وخاطبه بكلمة قاسية ردها السيد بما هو أقسى منها على مسمع من جميع الحاضرين ، وترك المكان غير مستأذن وهو يردد كلمته فى شىء كثير من الاضطراب .

أذكر بعد ذلك أن صحيفة الدستور كتبت تؤيد السيد فى موقفه من بدعة الإشارات والمواكب ، فأرسل السيد مبلغًا من المال باسم الاشتراك فى الصحيفة ، ولكنه أكبر من قيمة الاشتراك فيها ، فأبى العالم الفاضل الأستاذ محمد فريد وجدى بك صاحب الدستور أن يقبله وأعاده إلى السيد بعد خصم القيمة السنوية المكتوبة فى رأس الصحيفة ، وشاع فى السنوات التالية أن السيد رحمه الله قد ساورته الوساوس وأخذ يسأل كل من يلقاه عما يراد به ويدبر له فى الخفاء ، ثم تفاقم الداء حتى غطى على تلك الألمعية النيرة فقضت بدائها الأليم بعد عشرين سنة ونيّف .

تلك مأساة السيد توفيق . أما مأساة الآنسة مى فقد بدأت قبيل سنة ١٩٣٠ ولم تزل كامنة تتفاقم فى الخفاء حتى ظهرت بعد ذلك بسنوات .

أذكر أنها عادت من إيطاليا فى صيف إحدى السنين ، وذهبت أسلم عليها بعد عودتها ، فجرى الحديث عن موسوليني وهى تعلم رأيى فيه ورأيى فى جميع الحاكمين بأمرهم ، فقالت لى فى اضطراب ظاهر : لقد أضجرونا بأحاديثهم عن الدولة الرومانية ومجد الدولة الرومانية وتجديد الدولة الرومانية .. أليست دولتهم الرومانية هذه هى التى طاردت السيد المسيح وأسلمته إلى أعدائه ؟ .. لقد قلت لهم هذا فى عاصمة الدولة الرومانية .. نعم قلته لهم وليكن ما يكون .

قلت : وماذا عسى أن يكون ؟ لا شىء !

نعم لا شىء كان ينبغى أن يكون من جراء هذا الحديث ، ولكنه قد كانت منه أشياء بعد ذلك لأنه اقترن بالحالات التى تتفاقم من جرائها أمثال هذه الصدمات ، فلم نلبث فترة من الزمن حتى سمعنا الآنسة تعيده متوجسة مضطربة ، وتسألنا : ألم نعلم أن الدوتشى يتعقبها ويريد أن ينتزعها حية أو ميتة ؟ أليس صحيحا أنهم قرروا فى إيطاليا إجراء بعض التجارب العقلية

والجسدية للاستعانة بها فى أعمال التعذيب والإكراه على الاعتراف ، وأنها هى إحدى الفرائس التى يقصدونها بالتجربة على التخصيص .

* * *

حادث متشابه قد انتهى بنتيجة متشابهة ، ولكنه حادث قد يقع فى كل يوم لمئات من الناس ولا ينتهى بمثل تلك النهاية ولا بما يقاربها . فمثل هذا الحادث لن يكون وحده سببًا لوسواس الاضطهاد ولا سببًا لاستعصاء ذلك الداء الأليم ، وإنما يكون الحادث سببًا مباشرًا لإظهار أعراضه الكامنة وتفاقم شرورها وعقابيلها إذا أحاطت به صدمات نفسية متعددة ، ولا سيما إذا تجمعت تلك الصدمات فى السن التى يسميها الأطباء بسن الحرج ويسميها الفقهاء بسن اليأس فى بعض الأحيان Climactric .

هذه السن تبدأ عند المرأة فى نحو الخامسة والأربعين وتتأخر قليلا عند الرجال فلا تبدأ عند الكثيرين منهم قبل الستين ، وقد تبكر فتبدأ قبل الأربعين .

وهذه السن فى إحدى جوانبها هى انقضاء وظيفة مهمة من وظائف البنية الحية ، ولكنها من الجانب الآخر مرحلة جديدة فى الحياة الإنسانية يصحبها أحيانًا صفاء فى العقل وسكينة فى النفس وقدرة خالصة على فهم الحياة بمعزل عن الأهواء .

والمعول فى التفرقة بين الطورين على الحالة التى تصاحب سن الحرج فإن أدركت إنسانًا وهو عامر النفس بالعطف والحنان مملوء الذهن بالشواغل التى توافقه وترضيه فذلك خير وراحة ، وإن هى أدركته وهو منقطع عن العطف معرض للقلق مستسلم للهواجس فذلك هو الخطر الذى تخاف عقباه .

فى حالة السيد توفيق جاءته الصدمة فى إبان القلق وسوء الظن بالدنيا وبالناس . جاوز الثلاثين منهوك الأعصاب مهدود البنية ، وألقاه مركزه الاجتماعى بمعترك الأزمات السياسية بين مصر ولندن والآستانة ، وحدث أن زائرا من أصحابه استدرجه حتى كتب له بخطه قصيدة فى باب من الغزل المحظور ووصلت هذه القصيدة إلى المعتمد البريطانى فأغلق أمامه الأبواب فى

قصر الدوبارة كما أغلق الخديوى دونه أبواب عابدين ، وسبق إلى ظنه أنه مهدد فى منصبه وسمعته بغير اطمئنان إلى الحماية من أحد ، فلما وقعت الصدمة علانية بينه وبين الأمير خالطه الخوف من كل جانب وتوهم أنه مسموم أو مقتول أو مغدور به على وجه من الوجوه لا محالة ، ثم انقلبت أزمة السن أو أزمة الحرج إلى داء عضال .

أما الآنسة مى فقد لحق بها خوف الاضطهاد وهى معرضة له مستهدفة لوساوسه وأوهامه منذ زمن ليس بالقصير ، وكانت قد بقيت وحيدة فى معيشتها بعد فقد أبيها ثم فقد أمها ، وبعد خيبة رجاء فى الحياة البيتية لم تكن تبديها ولم تكن مع ذلك قادرة على إهمالها ، وأطبقت النكبات عليها وهى فى هذه العزلة بادعاء المدعين وطمع المتقاضين ، فجاء إليها بعضهم كما قال الأستاذ الطناحى يطالبها بثلاثمائة جنيه ، لأن أرضها مرهونة ، فلما طلبت أن تطلع على وثيقة الرهن أطلعوها وضيقوا عليها فى الطلب ، وهى فى شكواها وضيقتها لا تصرح لأحد بما يثير فى نفسها هذه الآلام .

ومن بلاء هذا الداء – داء الاضطهاد – أن الإقناع فيه متعذر أو مستحيل ، فإذا حاولت أن تنزعه من صاحبه سرى الشك إليه فى إخلاصك واتهمك بأنك من المؤتمرين به والعاملين على إنفاذ الدسيسة فيه وإجازة الغفلة عليه . وقد وقعت فى هذا الخطأ مرة وأنا أحسب أن الأمر أوضح من أن يقبل اللبس والخفاء ، فزرت الآنسة « مى » ورأيتها ترتجف وهى تفتح الباب وتشير إلى المسكن الذى أمامها وتضع أصبعها على فمها تحذرنى من الكلام . قالت : ألا ترى هذه الحجرات وما فيها من النور ؟ إنها خالية خاوية فلماذا ينيرونها فى هذه الساعة ؟ فاتجهت إلى تلك الحجرات وسألت عاملاً وجدته عند بابها فعلمت منه أنهم يعدونها للتسليم فى اليوم التالى وهو أول الشهر وأول تاريخ الإيجار .. فلما أنبأتها بما علمت بدا عليها الخوف وخطر لها أننى أخفى عنها المؤامرة أو أشترك مع المتآمرين .

ووقع مثل هذا الخطأ مع السيد البكرى بدار الكتب المصرية ، فرأيت الشاعر أحمد نسيم يكلم السيد والسيد يتلفت حواليه . قال السيد : إن الخديوى يأمر بى

ويلاحقنى إلى هنا ويرصد لى هذا وذاك ، وأشار إلى بعض الجالسين فى حجرة المطالعة .. فقال نسيم : إن أيام الخديوى عباس قد انتهت فلا خوف منه عليك .. فانتفض فزعًا وهو يتراجع ولا يرفع نظره عن محدثه ، وقال لى نسيم إنه كان يلقاه بعد ذلك فيدير عنه بصره ولا يسلم عليه .

رأسان لامعان ، سرى منهما النور وسرت إليهما النار ، واحترقا بما اشتعل فيهما من ذكاء وقد سلما من الاضطهاد حقًا ولم يسلما منه ظنًا ووهمًا ، كأنما هذا الاضطهاد قسمة بالحق أو بالباطل لكل عقل منير ..

الغربيون واللغات الشرقية

« ... هل الديوان الشرقى الذى نظمه شاعر الألمان الكبير « جيتى » مترجم إلى اللغة العربية ؟ وهل كان الشاعر الألمانى يؤمن بالتصوف الإسلامى الذى نظم ديوانه الشرقى محاكاة لشعرائه ؟ وإذا لم يكن مؤمنا به فما الذى بعث فى نفسه الإعجاب بأولئك الشعراء ودعاه إلى محاكاتهم فى ديوان خاص .. ؟

هذه خلاصة الأسئلة التى اشتمل عليها خطاب « قارئ مستفيد » من قراء هذه المقالات الأسبوعية ، وجوابى على السؤالين الأولين بالإيجاز أن الديوان الشرقى لم يترجم إلى اللغة العربية فيما نعلم ، وأن الشاعر الألمانى الكبير لم يكن مؤمنا بعقيدة معينة ولكنه كان يؤمن بالعناية الإلهية وبنظام فى الوجود يشبه القضاء والقدر ، وهو لا يستبعد أن تفنى هذه الموجودات جميعًا فى وقت من الأوقات ، ولكنه كان يرى أن وجود الله كفيل بوجود الكون على الدوام وبقاء النفوس الخالدة على صورة من الصور ، وأن العقل قد يقصر عن فهم الحقائق الأبدية ولا ينفذ من وراء الظواهر إلى شىء غير المصادفات والأوهام ، فعليه إذن أن يأخذ ما تعطيه المصادفة ، وأن يقر عينًا بالوهم ، وأن يكل الأمر كله إلى الحى المحيى الذى ينسج خيوط الحياة .. « فإذا اختلف الخيط أو التوى فالله بتخليصه أحرى » .

أما السؤال عن الباعث إلى إعجابه بشعراء التصوف المسلمين فلابد من بعض الإطالة فى بيانه ، لأنه باعث قديم يرجع إلى أسباب تشمل القارة الأوربية وأسباب تشمل الأمم الجرمانية ، وأسباب تخص الشاعر وحده أوتخصه مع عصره الثقافى الذى عاش فيه مع نخبة من كبار معاصريه .

فمن مئات السنين اهتمت أوربة الغربية وأوربة الوسطى بالحضارة الشرقية وهى تزدهر وتتفرع فى ظلال الدولة الأندلسية ، ثم اهتمت بها على عهد الحروب الصليبية وبعد قيام الدولة العثمانية فى القسطنطينية ، وكان نصيب الجرمان من هذا الاهتمام أوفر من نصيب غيرهم ، لأنهم شعروا بوطأة الهجوم العثمانى فى تخوم بلادهم أو على مقربة منها .

غير أن الثقافة الشرقية ، وثقافة الإسلام على الخصوص ، قد اجتذبت إليها عقول الجرمان بصفة خاصة منذ القرن الثانى عشر للميلاد ، وقد قام منهم عاهل فى القرن الثالث عشر كان يعرف اللغة العربية ويدرس آدابها ويقرب إليه علماءها وفضلاءها ، وهو فردريك الثانى إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، ثم جاءت ثورة لوثر على كنيسة رومة وشعارها الرجوع إلى التوراة والإنجيل فى أصلهما القديم ، وهى حركة تستدعى العلم باللغات السامية وتؤدى إلى دراسة اللغات الشرقية على الإجمال .

واتفق أن دراسة اللغات الشرقية كشفت عن أسرة اللغات الهندية الجرمانية ، فشعر الألمان برابطة كروابط القرابة بينهم وبين أهل الهند وأهل فارس ، وتوالى فيهم المشتغلون بالعقائد الآرية فى الأيام الأخيرة ، فنبغ بينهم شوبنهور الذى وضع العقائد البوذية فى أسلوب فلسفة حديثة ، ونبغ بينهم نيتسة الذى تكلم بلسان « زرادشت » فى كتابه المشهور ، وأعقبه كتّاب النازية الذين أوشكوا أن يجعلوا « العصبية الآرية » ديناً من الأديان .

أما عصر جيتى فقد كان له شأن خاص فى العناية باللغات الشرقية والثقافة الإسلامية ، فإنه عصر تمرد فيه الألمان على سيادة الثقافة الفرنسية فتحول فريق منهم إلى القرابة الجرمانية التى تجمعهم بالإنجليز وتحول فريق آخر إلى القرابة الآرية التى تجمعهم بالهند وفارس ، وجمع بعضهم بين هؤلاء وهؤلاء فعظموا شكسبير وملتون كما عظموا « كليداسا »الهندى وحافظًا الشيرازى ، وميز النزعة الشرقية على غيرها أن العصر فى القارة الأوربية كان عصر قلق وحيرة واضطراب ، وكانت ضمائر المفكرين تحن إلى مرجع من مراجع الاعتقاد والإيمان ، فوجدوا فى آداب الشرق سحر الزمن البعيد وسحر المكان البعيد ،

وفتحوا قرائحهم لما اشتملت عليه ثقافة الشرق من الأسرار .

تلك أسباب تعم الألمان من القرن الثامن عشر إلى القرن التاسع عشر ، وهناك أسباب تخص الشاعر الألمانى الكبير وتميل به إلى الإعجاب بشاعر شيراز « شمس الدين محمد » الذى ترجم ديوانه فى حياة جيتى وهو على شوق إلى التوسع فى المعارف الإسلامية ، فإنه قرأ السيرة النبوية وهو فى نحو الرابعة والعشرين ، واطلع على القرآن الكريم وأعاد قراءته بإمعان كثير ، وعقد النية على كتابة ملحمة تمثيلية فى سيرة النبى العربى فرسم فصولها من أيام الجاهلية إلى الهجرة ، ثم شغل عنها على عادته من المطاولة والإرجاء فى إتمام أعماله الكبار .

فلما ظهر ديوان « حافظ الشيرازى » باللغة الألمانية تناوله بشغف شديد وزاده شغفًا به ما أحسه من التشابه بين موقفه من أعاصير زمانه وموقف حافظ من نظائر تلك الأعاصير .

لقد كان حافظ الشيرازى يعيش فى عصر «تيمور لنك » عصر الفتن والغارات وقيام الدول وسقوط العروش ، ولكنه كان يسلم زمامه إلى أيدى القدر ويدع الفتن والمطامع لأهلها ويرتفع عن أفق الصغائر الزائلة إلى أفق الجمال الخالد من صنع الله ، فكان سماع البلبل أحب إليه من سماع أخبار الزلازل والغارات ، وكان النظر إلى خال على خد أحب إليه من النظر إلى القصر والديوان وكان يقول فى محبوبه :

ولو كنت ذا مال وهبت لخاله بخارى متاعًا سائغًا وسمرقندا

فكان تيمور يعنفه مظهرًا له الغضب والنقمة ويقول له : ويحك يا هذا .. أتعطى من أجل خال على خد مدينتين بذلت فى فتحهما ما بذلت من الدماء ؟ فيستكين حافظ ويعطيه حق السطوة ويعتذر إليه بالفقر .. ويقول إنه هو هذا الإسراف الذى جعله كما يراه صعلوكًا من دراويش الطريق ! .

كان هذا الموقف من زلازل العصر شبيهًا بموقف جيتى من زلازل عصر نابليون ، وكان مزاج جيتى كمزاج حافظ فى شغفه بالجمال المحسوس وطموحه إلى جمال المعانى ، وكان مثله يجرى وراء العشق من صباه إلى شيخوخته ، وكانت بينهما مشابهة فى حكم المركز وحكم الشعر والغزل ، فإن حافظًا قد اشتهر

بهذا الاسم لأنه كان من العلماء الدارسين للقرآن الكريم ، وأن جيتى كان عالما ووزيرًا للمعارف فى إمارة« فيمار » وهما مع ذلك يعشقان ويتغزلان من الصبا الباكر إلى الستين والسبعين .

ولقد سحرت كلمة « الإسلام » روح « جيتى » لأنه مطبوع على قلة اللجاجة وترك ما لا يعنيه واستعظام أهوال الحياة أن يلقاها العاقل بغير الصبر والتسليم للمقادير ، فاجتمعت أسباب خاصة بجيتى وأسباب تعم قومه وأسباب تعم الأوربيين فى زمانه وتحولت به إلى الشرق وإلى شاعر شيراز ، حتى قال إنه لو استطاع لأوجب على الناس أن يوجهوا إلى الشرق عينى كل مولود يخرج من بطن أمه إلى هذا العالم الشائق المخيف ..

كتب إلى الأستاذ « ا . ا الشريف » وهو معلم مطلع على الفلسفة الحديثة فقال بعد تمهيد عن مقال المنطق الوضعى « .. لفت نظرنا ظهور نزعات فى القرن العشرين على الخصوص تهدف كلها إلى هدف واحد تقريبًا ، منها مادية الشيوعيين ومنها الوجودية فى الفلسفة ومنها مذهب « دور كايم » فى الاجتماع وأخيرًا مذهب الواقعية المنطقية ، وكل هذه النزعات تلتقى فى اتجاه واحد وهو عدم الاعتراف بالروح على أساس ما ، فما نصيب البيئة الفكرية الخاصة بهذا القرن فى إظهار هذه النزعات » .

والذى يغلب على رأيى أن المشكلة كلها لم تكن مشكلة عصر من العصور ولكنها فى أساسها مشكلة حالة نفسية هى حالة القلق والاضطراب والبحث عن مرجع للطمأنينة والاستقرار ، ومتى وجدت هذه الحالة النفسية اختلف الناس فى علاجها على حسب اختلافهم فى الأمزجة والطبائع ، فمنهن من إذا حار واضطرب أغمض عينيه وترك قدميه تحملانه إلى حيث تذهبان ، ومنهم من إذا حار واضطرب أعفى عقله من التفكير وأقبل على متع الحس أو زخارف الخيال ، ومنهم من إذا حار واضطرب تحدى وأنكر وبالغ فى الإنكار وجرى على مذهب الثعلب الذى وجد العنب حامضًا أو جاوزه فى القناعة الكاذبة فقال إن الجسد خير من الروح وإن الهوى خير من الضمير ، ومنهم من إذا حار واضطرب صدق كل شىء فرارًا من تكذيب كل شىء ، وكل من هؤلاء له طريقته

فى معالجة الحيرة والاضطراب على حسب المزاج والطبيعة ، وإنما يأخذ من العصر عنوان الموضوع الذى يستمده من تطور الثقافة فى بعض مراحلها المتعاقبة .

وقد ظهرت حالة الحيرة والاضطراب فيما بين القرن الثامن عشر والقرن العشرين ، فعالجها بعضهم على طريقة فولتير وعالجها بعضهم على طريقة جيتى وعالجها بعضهم على طريقة بيرون ، وراجت مذاهب العقليين والواقعيين التجريبيين كما راجت فى عصرنا هذا نظائرها من الوجودية أو الواقعية ، ولم يخل هذا الزمن ولا ذلك الزمن من الروحانيين ومحضرى الأرواح ومن يدينون بالمثالية على وجه يناقض المادية والواقعية ، وجملة المسألة أنها حالة نفسية تناسب زمانها وتنتشر أو تنحصر بمقدار البيئة الثقافية التى تحتويها . ويبدو لنا أن العصر الحاضر يتمخض عن عقيدة قوية لأنها إحدى نتيجتين لا معدى عنهما بعد عجز الحياة المادية عن حل مشكلاتها ، فإما نكسة إلى البهيمية أو إيمان بما هو أرفع وأولى بالجهاد فى سبيله من هذه الحياة المادية التى شهرت إفلاسها أو كادت أن تشهره ؛ ومن العجيب أن تنشأ الإنسانية وتترقى لكى تهبط كرة أخرى إلى البهيمية ، فلعلها صائرة إلى غاية أكرم لها وأليق بماضيها مما تخشاه وتتوقاه .

القهوة الساهرة

عادت ليالى رمضان المأنوسة وعادت معها القهوات الساهرة إلى الصباح فى الأحياء الوطنية ، واستعدت هذه الأحياء لاستقبال زوار كثيرين من المصريين لعلهم لا يزورونها ليلاً ولا نهارًا فى غير هذا الموسم لأنه هو موسمها المشهور منذ أطلق الناس اسم القهوة على مكانها المقصود ..

وبين القهوة والسهر نسب قديم ، لأن قهوة البن كانت تروج فى مبدء ظهورها بين النساك والعباد الذين كانوا يستعينون بها على إحياء الليل فى التهجد والصلاة وذكر الله ، ثم انتشرت بين طلاب السهر فميا يباح وما لا يباح من أعمال الليل .

قال الشيخ عبد القادر الحنبلى فى كتابه عمدة الصفوة فى حل القهوة : « وأما أول ظهورها بمصر فقال العلامة ابن عبد الغفار رحمه الله تعالى أنها ظهرت فى حارة الأزهر المعمور بذكر الله تعالى فى العشر الأول من هذا القرن - العاشر للهجرة - وكانت تشرب فى نفس الجامع برواق اليمن يشربها فيه اليمانيون ومن يسكن معهم فى رواقهم من أهل الحرمين الشريفين ، وكان المستعمل لها الفقراء المشتغلون بالرواتب من الأذكار والمديح على طريقتهم المذكورة ، وكانوا يشربونها كل ليلة اثنين وجمعة ، يضعونها فى ماجور كبير من الفخار الأحمر ويغترف منها النقيب بِسُكُرُّجَة صغيرة ويسقيهم الأيمن ؛ فالأيمن مع ذكرهم المعتاد عليها وهو غالبًا ؛ لا إله إلا الله الملك الحق المبين ، وكان يشربها معهم موافقة لهم من يحضر الرواتب من العوام وغيرهم . قال : وكنا ممن يحضر معهم وشربناها معهم فوجدناها فى إذهاب النعاس والكسل كما قالوا ،

بحيث أنها تسهرنا ليالى لا نحصيها إلى أن نصلى الصبح مع الجماعة من غير تكلف ، وكان يشربها معهم من أهل الجامع من أصحابنا وغيرهم خلق لا نحصيهم ولم يزل الحال على ذلك ، وشربت كثيرًا فى حارة الجامع الأزهر وبيعت بها جهرًا فى عدة مواضع ولم يتعرض أحد مع طوال المدة لشرابها ، ولا أنكر شربها لا لذاتها ولا لوصف خارج عنها من إدارة وغيرها من اشتهارها بمكة ، وشربها فى نفس المسجد الحرام وغيره بحيث لا يعمل ذكر أو مولد إلا بحضورها وفشت بالمدينة الشريفة دون فشوها فى مكة بحيث أن الناس يطبخونها فى بيوتهم كثيرا ثم حدث الإنكار عليها بمكة المشرفة فى عام سبعة عشر وتسعمائة .. »

ومن المشهور المتواتر عند تناول القهوة إلى زماننا هذا أن يقول شاربها «شىء لله يا شاذلى » لأن العارف بالله على بن عمر الشاذلى كان أول من أشهرها فى البلاد اليمنية ومنها انتقلت إلى مكة فمصر فسائر البلاد الشرقية .

ومع هذا الشيوع بين النساك ورجال الطريق ظهر من الجهلاء المتعنتين من يحرمها ويعتدى على شاربيها ، وحدث فى شهر رمضان من سنة خمس وأربعين وتسعمائة للهجرة أن خرج صاحب العسس بعد العشاء فاقتحم مشاربها وأخذ من وجدهم فيها مربوطين بالحبال ثم أطلقهم فى الصباح بعد تعزيرهم وجلد كل واحد منهم سبع عشرة جلدة ، وكانت طائفة من العامة قد تصدت لعالم زمانه الشيخ شهاب الدين عبد الحق السنباطى وهو فى مجلس وعظه فسألوه فى القهوة وذكروا له أمورًا عن مجالسها وتردد الزامرين والراقصين عليها فأفتى بتحريمها .. قال الشيخ عبد القادر : « فتعصب جماعة من العوام لما سمعوا ذلك منه وخرجوا إلى بيوتهم من تلقاء أنفسهم من غير أمر حاكم بل لمجرد الحفلات العامية وكسروا أوانيها وضربوا جماعة ممن هناك فقام بسبب ذلك فتنة كبيرة وتعصبات بين من يقول بالحل والحرمة شهيرة ، واحتيج إلى الاستفتاء أيضًا واتصل الأمر - بقاضى مصر وهو الشيخ محمد بن إلياس الحنفى - فسأل عن حكمها جماعة من علماء القاهرة المفتين بها واعتمد على إفتاء من قال بحلها من العلماء المعتبرين ثم استظهر على ذلك فأمر بطبخها فى منزله وسقى منها جماعات

بحضرته وجلس يتحدث معهم معظم النهار ليختبر حالهم فلم ير فيهم تغييرا ولا شيئا منكرًا فأقرها على حالها .. » .

تلك كانت فتنة القهوة فى إبّان ظهورها وانتشارها قبل أربعمائة سنة أو نحو ذلك ، ولكن الحكمة قد غلبت على الفتنة فى ذلك الزمن فانتهى الرأى فى أمر قهوة البن إلى مقطع الصواب ، وأجمع الثقات على أن البن نبات حكمه حكم النباتات جميعًا والأصل فيه الإباحة لقوله تعالى : خلق لكم ما فى الأرض جميعًا ، فإن ثبت ضرره منع وحرم وإلا فلا منع ولا تحريم .

وأما الملاهى المحرمة فهى محظورة فى أماكن القهوة وفى غيرها ، حتى لو شرب الشاربون ماء زمزم بمكان اللهو المحظور لوجب منع الملاهى دون منع الماء كما أفتى العلماء فى مجلس الفتيا الذى أمر به السلطان .

ولقد كانت حقًّا فتنة أى فتنة فى ذلك العصر ، شغلت الناس بالأخذ والرد والدفع والطرد والسؤال والجواب واللجاج والسباب ، تجتمع منها مجلدات لو نظمت فى كتاب ، وحسبنا مما بقى منها أن عالمين من المنتظمين فى الدين عنيا بتأليف كتابين فى إباحة هذه القهوة : أحدهما الفقيه الحنبلى عبد القادر بن محمد الأنصارى صاحب عمدة الصفوة ، والآخر أبو بكر بن يزيد صاحب كتاب إثارة النخوة بحل القهوة ، ولا تسل عن الشعراء الذين يتبعهم الغاوون أو يتبعهم الراشدون ، فقد نظموا فى هذا المعنى ما راقهم أن ينظموه ، وقال أحدهم ابن « الحجبون » وهو شاعر من الفقهاء لا بأس بقوله :

حرموا القهوة عمدًا ... ورووا إفكا ومقتا
إن سألت النص قالوا ... ابن عبد الحق أفتى
يا أولى الفضل اشربوها ... واتركوا ما قال بهتا
ودعوا العذال فيها ... يضربون الماء حتى .. !

وقال آخر :

عرج على القهوة فى حانها ... فاللطف قد حف بندمانها
حان حكى الجنة فى بسطها ... ورقة العيش وإخوانها

وقهـوة لا غم تبقى إذا قـابلك الساقى بفنجـانها
قريبة العهد بعدن فـإن شككت فانظر حسن ولدانها
شراب أهل الله فيها الشفا جواب من يسأل عن شأنها
فاشرب ولا تسمع كلام الذى بـجهـله أفتى بـبـطلانها

أما الماجنون فقد اتخذوا من تحريم المباح ذريعة إلى إباحة المحرم فقال أحدهم معرضا بالخطيب الذى كان يحرمها :

قهـوة البن حـرمت فاحتسوا قهوة الزبيب
ثم طيبـوا وعـربـدوا وانزلوا فى قفا الخطيب

وقال آخر :

قهـوة البن حـرمت فاحتسوا قهوة العنب
واشـربوهـا وعـربـدوا والعنوا من هو السبب

وكذلك انتهى الغلو فى الحجر والقيد إلى الغلو فى الإباحة والانطلاق .

أما إطلاق اسم القهوة على شراب البن فيزعم بعض اللغويين أنه من الإقهاء أى الكراهية والإقعاد ، وسميت الخمر قهوة على زعمهم لأنها تقعد عن الطعام ، وكذلك قهوة البن تقعد عن النوم وتغنى شاربها عن طلب الأكل ، إلى أشباه هذه التخريجات .

والغالب أن الكلمة من أصل حبشى لعله قريب فى لفظه من اسم الإقليم الذى اشتهر بزرع البن ، أو لعله تصحيف من اسم النبات الذى يسمونه فلفل كاوة ، وله حبوب كحبوب البن ، وسكان الجزر الشرقية فى آسيا يتعاطونه كتعاطى القهوة والشاى ، ومنهم أناس يرتفعون بتربته إلى السماء التاسعة حيث يستوى « تنجالو » رب الأرباب ، ويقول كهانهم إن هذا الرب هبط إلى الأرض فى بعض زوراته لتفقد الجنس البشرى فطلب الكاوة و القاوة فى موعدها فلم يجدها فأنفذ رسولاً إلى السماء التاسعة يأتيه بها على عجل ، ولم يتريث الرسول حتى يطبخها ويعود بها فى آنيتها لعلمه بلهفة من يتعودونها عند حلول

موعدها ، فخلع الشجرة من جذورها ووضعها بين يدى رب الأرباب ، فإذا هو يسرع إليها فيجردها من ورقها ويكتفى بمضغ ساقها ، وكان يفعل ذلك وعلى مقربة منه إنسان من أبناء الفناء يعجب لما عاينه من شغف الرب الأكبر بذلك النبات ، فاختلس الورق الملقى على التراب واستخرج منه فصيلته الأرضية .. !

ومن الجائز جدًّا أن أهل اليمن - وهم على صلة قديمة بأهل الهند والجزر الشرقية - قد أطلقوا اسم الكاوة أو القاوة على شراب البن لما بينهما من التشابه فانتقل بالتصحيف والتحريف من القاوة إلى القهوة . ولكن اسمها الأفرنجى منقول ولا شك من التركية عن العربية ، لأن الترك ينطقون القاف كافًا ويقلبون الواو فاء، ومن المتفق عليه أن القهوات شاعت فى القاهرة ثم فى القسطنطينية قبل شيوعها فى الأقطار الأوربية ، وقد نقلها مغامر يهودى يسمى جاكوب « أو يعقوب » إلى العاصمة الإنجليزية ، فأصبحت القهوة ناديًا لأهل الأدب ، وملتقى للساسة من المشتركين فى المذهب والخطة ، وكادوا يخلطون بين اسم « كوبى » و « كوفى » فى مبدأ الأمر ثم سرت بينهم كلمة « الكفى » إلى اليوم وغلبت التسمية على أنديتها الفرنسية ، فهى اليوم بأندية الفرنسيين ألصق منها بأندية الإنجليز .

ومن الواضح أن بدعة هذه الأندية قد صادفت هوى فى نفوس الكثيرين عندنا ، فانتشرت القهوات فى عواصمنا انتشارًا لم تعرفه البلاد التى تزرع البن وتمضغه قبل طبخه أو تشربه بعد غليه ، حتى لقال بعض المازحين منا إنك تجد فى القاهرة بين كل قهوة وقهوة قهوة ثالثة ، وحتى لأصبح الجلوس على القهوات سنة لا ينقطع عنها بعض الناس بالليل ولا بالنهار ، وقد كادت هذه البدعة أن تسرى إلى الأقاليم كما سرت فى العواصم الكبرى ، وإن كان أهل الصعيد الأقصى يتورعون عن الجلوس بها لغير ضرورة قاهرة ، ويجيبك من تواعده إلى قهوة متعجبًا : وى . وى . وهل تضيق بنا البيوت ؟ وهل نحن فى هذا البلد غرباء أو طفيليون ؟

وحبذا القهوة مجتمعًا للأصدقاء والصحاب فى بعض المواسم حيث لا تتهيأ أسباب الجلوس فى البيوت ، ولكنها بئس البدل من الدار لمن يطلب فيها

القرار ، وأحسبنى لا أكره فى هذا القرن الرابع عشر للهجرة أن يمتحن الجالسون على القهوات مرة أو مرات كل عام بحملة من تلك الحملات التى كانت فى القرن العاشر تغزو مشارب القهوة وتأخذ من فيها مربوطين فى الحبال ، ثم تطلقهم فى الصباح بعد « تغيير الريق » على إفطار ساخن من اللكمات والكلمات .. !

ولكن فى غير موعد الإفطار برمضان ، كرامة للشهر الكريم .

obeikandi.com

بين ربط الحبال وخلع الأضراس

مفهوم أن يكثر أعداء التصوف بين الذين يسمون أنفسهم بالعصريين التقدميين ، لأننا إذا لخصنا فلسفة التصوف فى كلمة واحدة هى القناعة فالكلمة الواحدة التى تلخص لنا « العصرية التقدمية » هى الطمع أو الادعاء . ولا عجب فى ثورة الأدعياء على القناعة والقانعين .

وكاتب هذه السطور ليس بالمتصوف ولا يدين بفلسفة التصوف ، ولكننى كتبت فى الأسابيع الأخيرة بضع مقالات عن التصوف والروحانية لمناسبة الكلام على الشاعر الهندى محمد إقبال ، وعن الديوان الشرقى للشاعر الألمانى جيتى ، وعن قهوة البن واستعانة المتصوفة بها على السهر وإحياء الأذكار ، فوجب أن أحمل وزر المتصوفين عند العصريين التقدميين ؛ وجاءتنى حملة فى خطاب مبدوء بسؤال ساخر عن الذين يربطون شاربى القهوة بالحبال : بماذا يربطون الحشاشين ؟ ثم يلى ذلك ما تتعوده من كل نذل أو كل « عصرى تقدمى » .. فلا فرق بين الاثنين من حيث التلذذ بالتطاول والاندفاع إلى الاتهام ، وبعض ما فى ذلك التطاول أن ساهرى الليل فى العبادة هم المسئولون عن إباحة الحرام وتحريم المباح ، وهم الذين ابتلوا الشرق بالحشيش وآفاته وأوشكوا أن يقضوا على عقول الشرقيين ، لولا أن أدركهم العلم الحديث بتحريم تعاطيه .

وأعود فأقول إننى لست من المتصوفة ولا أنا ممن يجهلون عيوبهم أو ينكرونها ، ففيهم ولا شك طوائف شتى تعاب فى الرأى وتعاب فى السلوك ، ولكن من الظلم أن يقال عن المتصوفة خاصة أنهم هم المسئولون عن المغالاة فى تحريم المباحات ، لأن طبيعة التصوف نفسها بعيدة من هذه النزعة وليس من

شأنها أن تشغل صاحبها بتحريم المباح ، فربما اشتغل بتحريم المباح من يعنيه أن يتناول هذا ويمتنع عن ذاك من أطايب العيش ومناعم الحياة .. أما الذى يعرض عن مباحاتها كما يعرض عن محرماتها فلا يشغل باله بدرجات التحريم والإباحة وهو لا يفرق بينها فى الامتناع عنها بمحض رضاه .

ليست اللجاجة بالتحريم والإباحة إذن من طبيعة الزهد والتصوف ، ولكن المتصوفين قد يخالفون غيرهم فى إباحة بعض الأمور من طريق الاختلاف بين مذهب أهل الشريعة ومذهب أهل الباطن ، أو مذهب الباطنيين فى تأويلهم لبعض الأحكام التى تنطبق على الحلال والحرام . وهناك فرق بعيد بين المغالين المتنطسين وبين من يفسرون التحريم والإباحة على مذهب التأويل .

أما إباحة الحشيش خاصة ، فمن تخريف الحشاشين أن ينسبوه إلى هذا الإمام أو ذاك من المتصوفين ، ومن اعتمد على تخريف الحشاشين فى رواية التاريخ فلا فرق بين تخريفه وبين ذلك التخريف .

قال محمد بن على بن الأعمى الدمشقى وهو شاعر « حشاش » يتغنى بفضل « الحشيشة » وينسبها إلى الإمام حيدر حيث يقول :

دع الخمر واشرب من مدامة حيدر معنبرة خضراء مثل الزبرجد

إلى أن يقول :

وفيها معان ليس فى الخمر مثلها فلا تستمع فيها مقال مفند
هى البكر لم تمزج بماء سحابة ولا عصرت يومًا برجل ولا يد
ولا عبث الكهان يومًا بكاسها ولا قربوا من دنها كل ملحد
ولا نص فى تحريمها عند مالك ولا حد عند الشافعى وأحمد
ولا أثبت النعمان تنجيس عينها فخذها بحد المشرق المهند

وقصة هذه النسبة – نسبة كشف الحشيش إلى إمام من أئمة المتصوفة – هى نفسها – « تحفة » من تحف الأفانين التى اشتهر بها أبناء هذه الطائفة ، وقد لخصها الحسن بن محمد فى كتاب السوانح الأدبية فى مدائح القنبية فقال : « سألت الشيخ جعفر بن محمد الشيرازى الحيدرى سنة ٦٥٨ هجرية عن

السبب فى الوقوف على هذا العقار ووصوله إلى الفقراء خاصة وتعديه إلى العوام عامة فذكر لى أن شيخه شيخ الشيوخ حيدرًا كان كثير الرياضة والمجاهدة قميل الاستعمال للغذاء، قد فاق فى الزهادة وبرز فى العبادة وكان مولده بنشاور من بلاد خراسان ومقامه بجبل بين نشاور وراماه ، وكان قد اتخذ بهذا الجبل زاوية وفى صحبته جماعة من الفقراء وانقطع فى موضع منها ومكث بها أكثر من عشر سنين لا يخرج منه ولا يدخل عليه أحد غيرهم للقيام بخدمته . قال : ثم أن الشيخ طلع ذات يوم وقد اشتد الحر وقت القائلة منفردًا بنفسه إلى الصحرء ، ثم عاد وقد علا وجهه نشاط وسرور خلاف ما كنا نعهده من حاله ، وأذن لأصحابه فى الدخول عليه وأخذ يحادثهم ، فلما رأينا الشيخ على هذه الحالة من المؤانسة بعد إقامته تلك المدة الطويلة فى الخلوة والعزلة سألناه عن سبب ذلك فقال : بينما أنا فى خلوتى إذ خطر بخاطرى الخروج إلى الصحراء منفردًا فخرجت فوجدت كل شيء من النبات ساكنًا لا يتحرك لعدم الريح وشدة القيظ ومررت بنبات له ورق فرأيته فى تلك الحال يميس بلطف ويتحرك فى غير عنف كالثمل النشوان ، فجعلت أقطف منه أوراقًا وآكلها فحدث عندى من الارتياح ما شاهدتموه » .

ثم قال الشيخ : « وقوموا بنا حتى أوقفكم عليه لتعرفوا شكله ، فخرجنا إلى الصحراء فأوقفنا على النبات فلما رأيناه قلنا هذا نبات يقال له القنب فأمرنا أن نأخذ من ورقه ونأكله ففعلنا ثم عدنا إلى الزاوية فوجدنا فى قلوبنا من السرور والفرح ما عجزنا عن كتمانه ، فلما رآنا الشيخ على الحالة التى وصفنا مرنا بصيانة سر هذا العقار وأخذ علينا الأيمان ألا نعلم به عوام الناس وأوصانا ألا نخفيه عن الفقراء وقال إن الله تعالى قد خصكم بسر هذا الورق ليذهب بأكله همومكم الكثيفة ويجلو بفعله أفكاركم الشريفة » .

إلى آخر هذه « الأفنونة » أو هذه التحفة التى تدل عل معدنها من تخريفات المخرفين وتحريفات المحرفين ، فإنما هى تلفيقات الحشيش المعهودة ظاهرة فى وصف الشجرة بالنشوة وتمييزها بين النبات بالأنس والصبوة ، ومن تمام « التحفة » تصديق هذا التلفيق .

أما الحقيقة الراجحة فهى ما رواه المؤلف نفسه بعد ذلك حيث نقل حديث الشيخ محمد الشيرازى القلندرى فقال « إن الإمام حيدرًا لم يأكل الحشيشة فى عمره ألبتة وإنما عامة أهل خراسان نسبوها إليه لاشتهار أصحابه بها ... »

والأمر اليقين أن الحشيشة القنبية لم تكن سرًّا مجهولاً قبل القرن السابع للهجرة ، بل كانت معروفة بخصائصها ، وذكرها الطبيب يحيى بن عيسى بن جزلة فى كتابه منهاج البيان فيما يستعمله الإنسان وهو من مصنفات القرن الخامس ، وجاء ذكرها قبل ذلك فى وصفات الأطباء وكتب العقاقير ، وقد كان الشعراء بعد انتشار الطريقة الحيدرية يذكرون حشيشة القنب أو الشهدانج وينسبونها إلى موطنها القديم وهو الهند كما قال على بن مكى :

فقم فانف جيش الهم واكفف يد الضنى بهندية أمضى من البيض والسمر

وليس صحيحا مايقول صاحب الخطاب « التقدمى العصرى » عن إباحة الحشيش حتى حرمه العلم الحديث فى العصور الأخيرة ، فقد كان محظورًا أشد الحظر قبل عصرنا هذا بستة قرون وبلغ من تحريمه فى القرن الثامن للهجرة أن الأمير سودون الشيخونى كان يقبض على من يأكلونه ويعاقبهم بعقاب لا يذكر إلى جانبه الربط بالحبال ولا السجن والاعتقال ، وهو قلع الأضراس !

فإذا سأل « التقدمى العصرى » بماذا يربط الحشاشين من كانوا يربطون شاربى البن بالحبال ؟ فجواب سؤاله أن يعقد المقارنة بين ربطة الحبل وخلع الضرس ، ويختار منهما ما يرتضيه التقدم أو يرتضيه التقهقر على هواه ...!

وفى رأينا أن هذه التحريمات والتحليلات - إذا صرفنا النظر عن أسبابها العامة - لها فى تاريخ مصر نوبات تتردد من حين إلى حين ، لأنه بلد قديم العهد بالنظم والقوانين ، وبما يعرض لها من اختلاف التأويلات والأفانين .. فماذا جنت الملوخية مثلاً أو ماذا جنى الجرجير والترمس والفقاع حتى صدرت الأوامر بعد الأوامر فى عهد الحاكم بأمر الله محرمة لها قاضية على من يأكلها بالتشنيع والتشهير ؟ وماذا أطلعها كما يقولون فى رءوس القوم فشغلوا أنفسهم على أيام أبى الطيب المتنبى بالإيجاب والاستحسان بين إحفاء الشوارب وإعفاء الأذقان ؟

أغاية الدين أن تحفوا شواربكم يا أمة ضحكت من جهلها الأمم ؟؟

إنها على إجمالها تقليعة قديمة تعاود هذا البلد حقبة بعد حقبة ، ولعلنا قد شهدنا من أماثيلها فى زماننا هذا غير قليل !

obeikandl.com

بأىّ ذنب حرمت ؟

انتهى بنا التحدث عن تحريم الملوخية والجرجير وغيرهما إلى السؤال عن الأطعمة المحرمة ما تاريخ تحريمها وما سبب هذا التحريم ؟ وعن الملوخية خاصة أو « الملوكية » كما سماها صاحب السؤال : كيف تنسب إلى الملوك تارة وكيف يحرمونها تارة أخرى ؟

وبغير حاجة إلى نشر السؤال المفصل نعرض للموضوع توًّا فنقول : إن الأطعمة المحرمة قد عرفت من قديم الزمن ، وقد كان الناس يحرمون كثيرًا منها قبل الأديان الكتابية ، ولكن الملاحظ فى هذا الموضوع على الجملة أن الطعام المحرم قديمًا وحديثًا مقصور على لحوم الحيوان ؛ خلافًا للنبات والعشب والفاكهة . فإنها لا تحرم باعتبارها طعامًا يغتذى به آكلوه ، وإنما يقع التحريم عليها لأنها من قبيل السموم التى تضر بالعقول أو بالأجساد .

وعلماء الأجناس البشرية يزعمون أن القبائل الأولى كانت تحرم قتل بعض الحيوانات كما تحرم أكلها لأنها كانت تعبدها أو كانت تعتقد أن أرواح آبائها وأجدادها تحل فيها بعد فراقها لأجسادهم ، وذلك ما يسمونه « بالتابو » ويشملون به كثيرًا من الموجودات التى كانت تعبد فى الزمن القديم .

ومن علماء الأجناس هؤلاء من يزعم أن تحريم البراهمة لأكل الحيوان عامة راجع إلى اعتقادهم تناسخ الأرواح أو تقمصها ، ثم تطور إلى التحريم من قبيل الرحمة بسائر الأحياء .

أما الأديان الكتابية فاليهودية أكثرها تحريمًا لأنواع الحيوان وتشديدًا فى المراسم والشعائر التى تقيد الذبح أحيانًا بكهانها ومعابدها ، وتعليل

« الكهنوت » اليهودى لهذا التحريم فى العصور الحديثة أن اللحوم المحرمة كلها قد ثبت ضررها أو عسر هضمها بالتحليلات الكيمية والتقريرات الطبية ، ومن ذلك قولهم فى موسوعة المعارف اليهودية (طبعة يعقوب هاس) أن جلد السلحفاة يحمل كثيرًا من الجراثيم وأن السمك الذى لا قشر له ولا زعانف تركيبه البدنى أحط من تركيب غيره حسبما تقرر فى مذهب التطور وفى تحليلات الكيميين ، وعرضت الموسوعة لأنواع الحشرات التى أبيح أكلها فى الديانة اليهودية فقالت إنها من الجراد الذى يصعب تمييزه فى العصر الحديث ، ومن جل هذا لم تبحث فى تعليل إباحته كما بحثت فى سائر المباحات والمحرمات .

أما الإسلام فما حرمه من الحيوان قد ثبت ضرره لاشتماله على الديدان والجراثيم الضارة ، ومنها جرثومة « التريشينا » Trichina التى تكمن فى لحوم الخنازير ، وما عدا ذاك فاليسر غالب على شريعة التغذية فى الإسلام والأصل أن يباح كل شىء من الحيوان والنبات ما لم يثبت ضرره باليقين والإجماع .

ولم تكن تحريمات الحاكم بأمر الله دينية أو مستندة إلى فتوى من ذوى الفقه فى الدين ، وقد يستثنى منها الفقاع وهو نوع من الشراب المسمى بالبوظة فى عصرنا هذا يسكر إذا اشتد اختماره ولا اختلاف على تحريمه متى بلغ درجة الإسكار والتخدير ، ولكن الأطعمة الأخرى التى أفرط الحاكم فى تحريمها غير محرمة فى الدين الإسلامى وغير معدودة من المآكل الضارة أو المآكل التى تشتمل على سموم التخدير .

لماذا إذن حرمها وبالغ فى تحريمها وتتبع من يتعاطونها بالتنكيل والتشهير ؟

أصدق ما يقال فى ذلك أنها أعمال لا تعلل كما قال المقريزى حين وصف أحكام هذا الحاكم التى سلطها على الناس فى شئون الغذاء والكساء وغيرها من الشئون .

والذين عللوها لم يصلوا بها إلى علة يرتضيها عقل عاقل ، ومن ذاك أنهم عللوا تحريمه الملوخية والجرجير والمتوكلية بكراهته لمعاوية وعائشة والخليفة المتوكل ، فقد علم أن معاوية كان يكثر من أكل الملوخية وأن الجرجير ينسب إلى السيدة عائشة ، وأن المتوكلية نسبت إلى الخليفة العباسى ولم تكن تخلو منها

مائدته فى وقت من الأوقات ، وكلهم كانت بينهم وبين الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه خصومة شديدة ، وكان المتوكل العباسى - وهو من أبناء عمه - لا يذكر عليًا إلا باسم « الأبجر البطين » لاشتداد التنافس فى أيامه بين العلويين والعباسيين ..

قالوا ذلك فى تعليل تحريم الحاكم بأمر الله للملوخية والجرجير والمتوكلية ، وقالوا إنه كان يحرم كل طعام اشتهاه أعداء جده الإمام أو نسب إلى واحد من أولئك الأعداء .

ولكن هل يسمى هذا تعليلاً يرتضيه عاقل ؟ وهل أخطأ المقريزى فى وصفه أعمال صاحبنا بأنها لا تقبل التعليل ؟

قالوا ذلك فى علة تحريمه للملوخية والجرجير فماذا يقال فى علة تحريمه للترمس ؟ وماذا يقال فى علة تحريمه لتلك الأنواع الكثيرة من السمك وحيوان الماء ؟

والعجيب أنه كان يوافق اليهود فى تحريم السمك الذى ليست له قشور ولا زعانف ولكنه كان يطارد اليهود ويأمرهم أن يعلقوا الأجراس فى أعناقهم كلما ساروا فى الظلام أو ذهبوا إلى الحمام .. فليست قصته معهم فى تحريم الأطعمة التى يحرمونها أنه كان يحبهم أو يبغضهم ، وإنما هى كما قيل فى ابن عباد « خطرات من وساوسة » لا بخل فيها ولا كرم .

ونعود إلى الملوخية فنقول إنها لم تنسب إلى الملوك فى وقت من الأوقات ، ولم تعرف باسم الملوكية فى اللغة العربية كما توهم صاحب الخطاب ، وحقيقة اسمها « الملوح » فى العبرية و « الملاح » فى العربية وهى التى جاء ذكرها فى سفر أيوب من العهد القديم حين قال عن طعام المهزولين إنهم هم « الذين يقطفون الملاح عند الشيح وأصول الرتم خبزهم » .. ولم يكن طعمها يومئذ بالمستطاب لأنها كانت من نبات البرية المهجور .

أما تسميتها بالملوخية فهو تصحيف اسمها اليونانى « ملواكية » أو « ملواخية » نقلوه من العبرية فصحفوه ثم نقلناه عنهم كما نقلنا عنهم كثيرًا من

مفردات النبلة ، وهم ينطقون الحرف تارة كافًا وتارة خاء كما يفعلون فى كريستو و « خريستو » وسائر هذه الكافات والخاءات .

فلا علاقة بين الملوكية والملوخية ، ولا تناقض بين تحريمها تارة ونسبتها إلى الملوك تارة أخرى ، لأنها لم تنسب قط إلى الملوك ! .

وينبغى على كل حال أن نفرق بين مسألة الذوق ومسألة التحريم فى أنواع الأطعمة والأشربة على اختلافها ، فإننا لو حكمنا ذوق أمة من الأمم فى طعام من الأطعمة أوشك التحريم أن يشمل كل طعام .

فالرومان الأقدمون كانوا يستطيبون أكل الصراصير ، والأعراب فى البادية كانوا يستطيبون لحم الضب ، ومن أبناء الصحراء فى عصرنا هذا من يأكلون الجراد ويعافون الجنبرى ! ومن أمم البحر الأبيض من يغالون بطعام الضفادع ويعافون الجراد ، ومنهم من يحسبون الزيتون الأخضر المملح أطيب المشهيات وقد رأيت أناسا من الإنجليز يلفظونه بعد ذوقه وهم يتقززون ، ونحن فى مصر نشتهى الفسيخ والملوحة والمش القديم وهى لا تطاق شمًّا ولا ذوقًا عند أناس من أبناء وادى النيل فضلًا عن الأوربيين ، وبين أصناف الجبن الأوربية التى يغالون بثمنها ما نرفضه نحن المصريين ولا نشتريه بأبخس الأثمان ، وأذكر أننى قضيت فى القاهرة سنوات قبل أن تطيب نفسى بأكل الجنبرى وأم الخلول مع أننى أستطيب السمك وحيوان الماء على الإجمال . وقد أكلت لحم التمساح والسلحفاة على سبيل العلاج ، وتحدثت إلى بعضهم بذلك فلمحت الخوف على عينيه كأنه يسأل نفسه : وماذا يعصمنى من هذا الذى يأكل التمساح وهو فى البر خطر وفى البحر خطران ؟ ..

لقد كان النبى عليه السلام يعاف لحم الضب ولا يحرمه ، وقال ابن عباس رواية عن خالد بن الوليد أنه « دخل مع رسول الله على خالته ميمونة بنت الحارث فقدمت إلى رسول الله لحم ضب جاءها مع قريبة لها من نجد ، وكان رسول الله لا يأكل شيئًا حتى يعلم ما هو ، فاتفق النسوة ألا يخبرنه حتى يرين كيف يتذوقه ويعرفه إن ذاقه ، فلما سأل عنه وعلم به تركه وعافه ، فسأله

خالد : أحرام هو ؟ قال لا . ولكنه طعام ليس فى قومى فأجدنى أعافه .. قال خالد : فاجتررته إلىّ فأكلته ورسول الله ينظر » .

هذه هى السنة الرشيدة فى الطعام والغذاء ، دع ما يضر وكل ما تشتهيه أنت وقومك ، ولا تنكر طعامًا لأنك تعافه أو لأن قومك يعافونه .. فلعل أقوامًا آخرين يشتهون ما تعاف ويعافون ما تشتهى ، ولعلك أنت غدًا مخالف لما تعودته اليوم ، وأعجب الناس حقًا من يتذوق بفمه هو لمعدات الآخرين ..

obeikandl.com

بأسهم بينهم شديد

وصل إلىّ تقرير مفصل يقع فى سبعمائة وخمسين صفحة من القطع الكبير عن التربية فى الشرق الأوسط العربى ، ألفه الدكتور رودريك ماثيور أستاذ التربية بجامعة بنسلفانيا والدكتور متى عقراوى المدير العام للتعليم العالى بالعراق ، وترجمه إلى اللغة العربية الدكتور أمير بقطر الأستاذ بالجامعة الأمريكية فى القاهرة ، وهو على الجملة من قبيل هذه النشرات والإحصاءات التى تصدرها الجامعات الأمريكية بما تنطوى عليه من غرض صريح أو غرض مضمون .

يشتمل التقرير على شرح عام لنظم التعليم فى مصر والعراق وسورية ولبنان وشرق الأردن وفلسطين ، ونظام التعليم عند الصهيونيين هو الذى نخصه بالتعقيب فى هذا المقال .

جاء فيه من الصفحة الـ ٣٥٤ « أن نظام المدارس الإسرائيلية مقسم إلى ثلاثة أنواع أو اتجاهات ، تبعًا للحزب الذى ينتمى إليه آباء التلاميذ سواء أكان الحزب العام أم حزب مزراحى أم حزب العمل ، وتختلف هذه الاتجاهات فى مثلها العليا التعليمية والدينية والسياسية ، فالذين يحبذون الحزب العام يعتقدون أن التقاليد الدينية اليهودية هى النبراس الذى ينبغى أن تستهدى به نظم التعليم ، على أن تترك مراعاة الوصايا الدينية للوالدين والبيت ، والهدف الذى ترمى إليه مدارس الاتجاه العام بث روح التعليم القومى الصهيونى فى نفوس التلاميذ مصحوبًا بالمبادئ الإنسانية التقدمية وتبلغ نسبة التلاميذ اليهود الذين يؤمون مدارس هذا الحزب نحو ٥٣ ٪ من مجموعهم فى المدارس العامة . أما مدارس حزب مزراحى أو الصهيونية الأصولية التقليدية فترمى إلى توفير نوع من

التعليم ذى ثقافة عامة مع عناية خاصة بالتربية الدينية .. وأخيرًا حزب العمال وتعنى مدارسه بالجمع بين المبادئ القومية العامة وتعاليم حركة العمال الإسرائيلية فى فلسطين . ففضلًا عن نشر الثقافة العامة والمبادئ الدينية بين التلاميذ وهى العناصر المشتركة فى التربية بين جميع الأحزاب .. فإن مدارس العمال تبث فى نفوس النشء حب العمل اليدوى .. إلخ » .

عنينا بهذا الجانب من التقرير بصفة خاصة لأننا نعتقد أنه لمس العلة التى كمنت ولا تزال تكمن فى كل مجتمع صهيونى ، وستظل كامنة بين هذه المجتمعات تفعل فى المستقبل ما فعلته فى الماضى ، فلا تخلو من الانقسام الذى ينشأ من دعوة واحدة أو دعوات كثيرة لا نفرق بين الدينى أو السياسى أو الاجتماعى منها ، لأنها فى الواقع هى كلها صور متعددة لطبيعة الانقسام فى شعب صهيون .

وتلك العبارة التى نقلناها من التقرير تتلطف فى وصف الحالة على حقيقتها ، لأن أسباب الانقسام حول مناهج التعليم لا تنحصر فى الآراء التعليمية والخطط المدرسية بل تدور فى أساسها « أولًا » على التمهيد للسلطان والاستيلاء على الحكومة وتدور « ثانيًا » على الوجهة السياسية التى تتجه إليها الحكومة بعد القبض على أعنة السلطان فى الدولة .

فحزب مزراحى فى الواقع شديد المحافظة لا يقنع بما دون الرجعة إلى نظام الحكم الهيكلى على عهد الدولة الإسرائيلية الغابرة ، ولكنه قد يعتبر من الأحزاب المعتدلة بالقياس إلى حزب عقودة Ajudaالذى يضيف إلى ذلك الغرض حماسة التعصب الأعمى وكراهة الإصغاء إلى كل تفسير يخالف التقاليد التى كانت متبعة فى زعمهم قبل أكثر من ألفى سنة ، والشقاق بينهم على مناهج التعليم إنما هو شقاق على السلطة بعد عشر سنين ، أى بعد تخرج التلاميذ الذين يتعلمون على حسب النظام فى مدارس كل طائفة ، وقد ظل هذا الشقاق يعطل وضع الدستور الصهيونى فى حكومة إسرائيل زمنًا طويلًا لإصرار كل فريق منهم على تضمين الدستور غايته من تعليم الناشئة وتوجيه الدولة ، ولن ينقطع هذا الشقاق على طول الزمن ، وإن لاح اليوم أنّ مآزق إسرائيل بين جيرانها تضطرها إلى اصطناع الوفاق جهد المستطاع .

« بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى » .. ذلك هو وصف بنى إسرائيل فى سورة الحشر من القرآن الكريم ، وقد نزلت هذه الآية فى بنى النضير من يهود المدينة ، ولكنها تصدق على اليهود فى كل مجتمع ، وتصدق عليهم فى إسرائيل العصرية ، فمن ظنهم مجتمعين على رأى واحد فهو على خطأ ، لأنهم شتى القلوب كما كانون قبل آلاف السنين ، وكما يكونوا حيث كانوا مجتمعين .

فالشقاق بينهم والشقاق مع جيرانهم طبيعة لم تفارقهم منذ سمع بهم التاريخ فى هجرتهم إلى وادى النهرين قبل أيام موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ، وأنبياؤهم هم الذين وصفوهم بأنهم شعب غليظ الرقبة ، وأنهم لا يكفون عن الشقاق والعصيان .

ولسنا نعنى بالشقاق تلك الخلافات المذهبية التى اشتهر بها تاريخ اليهود من عهد إبراهيم عليه السلام ، فهى على التحقيق أكثر جدًا من جملة الخلافات المذهبية فى العقائد الأخرى ، ولكننا قد نقول إنها ضروب من الخلاف تعم الأقوام ولا تصطبغ بالصبغة القومية فى شعب دون غيره من الشعوب ..

كذلك لا نعنى بالشقاق تلك المنازعات السياسية التى بدأت مع الدولة اليهودية القديمة ، فقد انقسمت فلسطين الصغيرة بين دولة إسرائيل ودولة يهودا وانقسم كل جزء منها أجزاء ، وظهر الانقسام حين ظهرت لليهود دويلة هيرود وهى لا تزيد على شرق الأردن ، ويتكرر ذلك مع كل حكومة يهودية على نحو لم نعهده فى جميع الحكومات .

ومع هذا لا نعنى بالشقاق تلك المنازعات السياسية لأنها كذلك عرض متكرر فى حياة الأمم وإن اختلف فى القوة والمقدار .

لا نعنى الخلافات المذهبية ولا المنازعات السياسية ، ولكننا نعنى تلك الظاهرة التى لم تنقطع فى تاريخ القبيلة العبرية منذ أربعة آلاف سنة ، فإنهم خرجوا من جزيرة العرب إلى العراق فاختلفوا بينهم واختلفوا مع العراقيين وهجروا البلاد إلى أرض كنعان مكرهين ، ثم اختلفوا بينهم واختلفوا مع الكنعانيين ، ثم اختلفوا بينهم واختلفوا مع المصريين ، ثم اختلفوا بينهم واختلفوا

مع سكان فلسطين فى الجنوب ، ثم اختلفوا حيث هاجروا إلى كل مكان وفى كل زمان ، ولم يتفقوا مع مسيحيين ولامسلمين ولا مع أجناس من الصقالبة أو أجناس من التيوتون أو أجناس من اللاتين .

ما علة هذه الطبيعة الراسخة فى الزمن القديم ؟ هى علة خاصة لا شك فى وجودها ، وخلاصتها أنها نشوز فى التكوين الاجتماعى وقف بنموهم عند مرحلة مبتورة تحول دون تطورهم مع الزمن من تكوين القبيلة البدوية إلى تكوين الأمة الحضرية ، فهم إلى اليوم يبلغون غاية ما يبلغونه من المدنية والعلم ولا يتخلصون من علاقة القبيلة بينهم كما كانت فى دور البداوة ، فمسألة الإيمان بالديانة الإسرائيلية عندهم مسألة لحم ودم وقرابة عنصرية وليست مسألة الهداية الإنسانية التى يشترك فيها جميع بنى الإنسان ، وذلك هو النشوز الذى يجعلهم شذوذًا ملحوظًا فى كل بيئة فلا هم من قبائل البادية ولا هم من أمم الحضارة العالمية .

تلك هى خلاصة العلة فى الزمن القديم .

أما العلة فى العصر الحديث فهى مرض محقق لا شك فيه : مرض موصوف بتفصيلاته فى كتب الأطباء ، ومعروف من خصائصه أنه يبتلى صاحبه بما ابتلى به الشعب الصهيونى فى كل ما هو مأخوذ عليه .

ما هى أعراض « البارانويا » ؟ هى « أولا » تسلط فكرة الغرور وأن صاحبها ممتاز على سائر خلق الله و « ثانيًا » أنانية مريضة تغلب على المصاب بها فلا تزال تخيل إليه أن الناس جميعًا مسخرون لخدمته و « ثالثًا » عقيدة الاضطهاد وامتلاء النفس بالحذر من الآخرين و « رابعًا » شعور الفصام أو الانفصام كما يطلقه أطباء الأمراض العقلية ويعنون به انقطاع العلاقة بين المفصوم ومن يحيطون به من أبناء بيئته الاجتماعية ، وتلتقى « البارانويا » فى هذا العرض بآفة « الشيزوفرانيا » المعروفة .

وليس المهم أن تكون هذه الأعراض وسواسًا وهميًّا أو حقيقة واقعة ، بل ليس المهم أن يجرى الاضطهاد فعلًا أو يحدث الخوف من وساوسه الخيالية التى لا وجود لها فى الواقع ، ولكن المهم فى الحالة النفسية المريضة هو فعل

الأعراض فى المصاب وأثر هذه الإصابة فى عواطفه وأحاسيسه وتصرفاته واستجابة نفسه لمن حوله .

فهل هناك شك فى ادعاء الصهيونيين أنهم شعب الله المختار أو شعب الله الممتاز دون سائر الشعوب ؟ وهل هناك شك فى إيمانهم بتسخير الأمم كلها لخدمتهم واستباحتهم بمقتضى كتبهم كل ما تبيحه شريعة الأنانية فى معاملة غيرهم ولا تبيحه شرائع الضمير والآداب ؟

وهل هناك شك فى شعورهم بالاضطهاد واتفاقهم على العزلة حيث كانوا بين ظهرانى كل مجتمع فى مجتمعات الحضارة ؟

أعجب الأعاجيب أن تسمع من الممخرقين الذين يتشدقون بذكر الأمراض النفسانية أن عداوة اليهود Anti Semitism مرض أصيبت به الأمم فى جميع الأزمنة . ثم يعز على هؤلاء الممخرقين أن يصفوا الصهيونية بالمرض وهى « البارانويا » بعينها كما يشرحها الطب بجميع تفصيلاتها ، وقد فعلت هذه البارانويا فى نفوس القوم ما تفعله عادة فى جميع النفوس ، فإن صاحبها ليتخيل أنه أفلت منها حين يكون فى قبضتها ، وكذلك فعلت « البارانويا » الاجتماعية بالقوم حين خطر للبعض « مصلحيهم » أن يعالجوهم من أدوائهم ودعاواهم فجمعوا مؤتمر الإصلاح المشهور فى « فلادلفيا » بأمريكا سنة ١٨٦٩ وكتبوا برنامج الإصلاح على حسب العقيدة العصرية التى تليق بالمعاصرية ؛ فإذا بالمادة الثانية منه تقول ما نصه : « نحن لا ننظر إلى خراب المجتمع اليهودى الثانى كأنه عقوبة لإسرائيل على خطاياها ، ولكننا ننظر إليه كأنه نتيجة التدبير الإلهى الموحى به إلى إبراهيم والذى اتضح جليًّا فى سياق التاريخ ، وغايته نشر اليهود فى جوانب الأرض لتحقيق رسالة الكهانة العليا وقيادة الأمم إلى العلم الصحيح بعبادة الله .

ولما أراد هؤلاء المصلحون أن ينكروا الفوارق بين سلالة هارون التى تحتكر الكهانة وبين غيرها من اليهود كانت وسيلتهم إلى محو هذه العقيدة إن حق الكهانة قد تحول إلى كل يهودى بعد تفرق الشعب بين الأمم ، فكل يهودى فهو كاهن مرسل إلى رعاياه من سائر الأقوام .

تلك هى « البارانويا » المتأصلة فى هذه الصهيونية المصابة ، وتلك هى علة الفصام بينها وبين من حولها وعلة الانفصام بين أبنائها حيثما اجتمعوا إلى بيئة واحدة ، وهم على الدوام « تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » .

ما أبلغها من آية . إن « البارانويا » تسمية جديدة لما يمس العقول فلا تعقل ، فما أبلغ تعليل الشقاق بين القوم ، وبين أنفسهم وجيرانهم بأنهم « لا يعقلون » .

obeikandl.com